البحث التاريخي من خلال الصّورلوجيا والمصادر الرحلية: نحو تنويع المقاربات وتجديد القراءات

Historical research through imagology and travel writings: towards diversifying approaches and renewing readings

د. مجيد هلال: باحث في التاريخ، المغرب

Mr. MAJID HLAL: Researcher in history, Morocco

Email: Majido02@hotmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v4i6.1031

الملخص:

إن النصوص الرحلية، من المصادر التي يمكن للباحث التاريخي أن يسند بها بحثه، نظرا لما يربط تلك المادة التي تختزنها بمواضيع وقضايا تاريخية، لكن تبقى من ناحية أخرى، حاملة لصور وتمثلات الرحالة للآخر، هي صور قد تعكس واقعا معينا، أو قد تتخللها بعض العناصر الذاتية والإيديولوجية. من هذا المنطلق تتجلى أهمية دراستنا هذه؛ كدراسة تهدف إلى أهمية توظيف الصورلوجيا للبحث في تاريخ العلاقة بين الأنا والآخر، وطبيعة هذه العلاقة، وكذا الكشف عند المحركات والدواعي التي قد تتحكم في تشكيل صورة الأنا في الخطاب الرحلي الأجنبي، وفي المقابل استيعاب أهمية الصورلوجيا في نقد الذات ومعرفة حقيقة الذات من خلال مرآة الآخر. ولبلوغ هذه الأهداف وظفت الدراسة منهجا تحليليا، نقديا، من خلاله نبرز تلك العلاقة التي يمكن أن تجمع البحث التاريخي بالدرس الصورولوجي وذلك من خلال اعتماد النص الرحلي كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية، وذلك عبر تفكيك صورة الأنا في الخطاب الرحلي.

وقد خُلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات، من أهمها ضرورة توظيف النقد الصورلوجي للوقوف على ما ينطوي عليه الخطاب الرحلي تجاه الآخر، ومن جهة أخرى العمل على استغلال ما جاء في كتابات الرحالة لاستنباط معطيات تاريخية قد لا نجدها في غيرها من المصادر التاريخية المباشرة أو غير المباشرة، لذلك على أي باحث في التاريخ، خاصة ما يرتبط بالتاريخ الاجتماعي وتاريخ الذهنيات أن يضع ضمن أولوياته البيبليوغرافية البحث عن النصوص الرحلية والظفر بما تزخر به من مادة معرفية تاريخية هامة وجد ثمينة.

الكلمات المفتاحية: البحث التاريخي، الصّورلوجيا، المصادر الرحلية، الآخر، الأنا، الخطاب الرحلي

Abstract:

Travel texts are among the sources that the historical researcher can base his research on, given what links the material they store to historical topics and issues. However, on the other hand, they remain carriers of the traveler's images and representations of others. These are images that may reflect a certain reality, or may be interspersed with some elements subjectivity and ideology.

From this standpoint, the importance of our study becomes clear. As a study that aims at the importance of employing imagology to research the history of the relationship between the ego and the other, and the nature of

this relationship, as well as revealing the drivers and motives that may control the formation of the image of the ego in foreign travel discourse, and in return understanding the importance of imagery in criticizing the self and knowing the truth of the self through the mirror of the other .

To achieve these goals, the study employed an analytical and criticacl approach, through which we highlight the relationship that can combine historical research with the imagology, by adopting the travel text as a source of historical knowledge, and by dismantling the image of the ego in the travel discourse.

The study came to a set of results and conclusions, the most important of which is the necessity of employing formal criticism to find out what is implied in the traveler's discourse towards others, and on the other hand, working to exploit what was stated in the traveler's writings to extract historical data that we may not find in other historical sources, direct or not. Therefore, any researcher in history, especially what is related to social history and the history of mentalities, must place among his bibliographic priorities the search for travelogue texts and the acquisition of the important and valuable historical knowledge material they contain

Keywords: Historical research, imagology, travel sources, other, ego, travel discourse

المقدمة:

إن الرحلة هي لحظات اتصالية تلتقي فيها الذات مع الآخر، تَمَخَّضت عنها صوَرٌ مختلفة كَوَّنَتْها الذات الرَّاحِلةُ للفضاء المُرْتَحَلِ إليه، تَمَّ صياغتها عبر خطاب مَسْرود على شكل نص رحلي، كان هو الآخر رحلة في التمثلات والذهنيات، وكذا الأحكام التي قد تعكس واقع الآخر، وتشكل رصيدا معرفيا، يسهم في إنتاج معرفة تاريخية حول تاريخ الآخر، فردا وجماعات، لتَكُونَ نصوص الرحلة مصدرا من مصادر هذه المعرفة التاريخية، وسندا في البحث التاريخي، عبر استجلاء صورة الآخر بكل مكوناتها التي تُهَيْكِلُ هذه الصورة، وما تحملهُ من أفكار وحقائق ومعطيات تفتح المجال أمام توسيع أفق البحث في تاريخ الأمم والشعوب، عبر استحضار مقومات الدرس الصُّورلوجِي، الذي يرتكز على تفكيك الخطاب الرحلي، وفق دراسة علمية موضوعية، تعْمَدُ إلى كشف مظاهر التشويه والخطأ في الصورة التي كونتها "الأنا" عن "الآخر"، والتصدي لها عبر التقويم والتصحيح، ومن جانب آخر رصد المعطيات والحقائق التي جاءت بها مَرْوِيات الرحلة، من أجل توظيفها في البحث التاريخي، واستخلاص معرفة تاريخية من خلالها.

إن النصوص الرحلية، من المصادر التي يمكن للباحث التاريخي أن يسند بها بحثه، نظرا لما يربط تلك المادة التي تختزنها بمواضيع وقضايا تاريخية، لكن تبقى من ناحية أخرى، حاملة لصور وتمثلات الرحالة للآخر، هي صور قد تعكس واقعا معينا، أو قد تتخللها بعض العناصر الذاتية والإيديولوجية، لذلك يبقى تناول ما ورد بها أمرا أساسيا في البحث التاريخي، لكن عبر آليات التمحيص والنقد، وهو ما تتولاه المقاربة الصورلوجية في دراستها لصورة الآخر. وبالتالي ورقتنا ستسلط الضوء على هذه العلاقة والتقاطعات التي يمكن أن تربط الدرس الصورولوجي بالبحث التاريخي من خلال نموذج المصادر الرحلية

من هنا نتساءل، عن العلاقة والتقاطعات التي يمكن أن تجمع النص الرحلي بالبحث التاريخي والصورولوجيا؟

إشكالية يمكن تفويعها إلى مجموعة من التسؤلات، نضعها كالتالي:

- ما وظيفة الصورلوجيا في البحث التلريخي؟ وما القيمة التي يمكن أن يضيفها توظيف الدرس الصورلوجي؟
- كيف نستطيع من خلال الصورلوجيا تفكيك الخطاب الرحلي وما شكّله من صور وتمثلات حول الآخر؟

منهج الدراسة:

تعتمد دراستنا على منهج تحليلي من خلاله نبرز تلك العلاقة التي يمكن أن تجمع البحث التاريخي بالدرس الصورولوجي وذلك من خلال اعتماد النص الرحلي كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية، وذلك عبر تفكيك صورة الأنا في الخطاب الرحلي.

أهداف الدراسة:

تهدف دراستنا إلى:

- إدراك العلاقة التي يمكن أن تجمع البحث التاريخي بحقل الصورلوجيا من خلال نموذج المتون الرحلية.
- توضيح أهمية وقيمة الصورلوجيا في البحث التاريخي عبر إخضاع الصورة التي كونها الآخر أي الرحالة عن الأنا الآخر أي المجتمع الذي استهدفته الرحلة.
- إبراز مدى ضرورة الاعتماد على المتون الرحلية للبحث في تاريخ الأنا والآخر ونوع العلاقة التي كانت تجمع الطرفين.
- تفكيك الخطاب الرحلي الأجنبي والوقوف عند الذاتي والموضوعي فيه.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة في توظيف الصورلوجيا للبحث في تاريخ العلاقة بين الأنا والآخر، وطبيعة هذه العلاقة، وكذا الكشف عند المحركات والدواعي التي قد تتحكم في تشكيل صورة الأنا في الخطاب الرحلي الأجنبي، وفي المقابل استعاب أهمية الصورلوجيا في نقد الذات ومعرفة حقيقة الذات من خلال مرآة الآخر.

أولا: الصورلوجيا: المفهوم والنشأة والوظيفة

1- الصورلوجيا: المفهوم والنشأة

تعتبر "الصُورلوجيا" (Imagologie)من المباحث الحديثة التي عرفها مجال الأدب المقارن[1](Littérature comparée)، وأصبحت من أهم مباحثه، وأول ما ظهرت الصّورلوجيا، أو كما يسميها آخرون "علم الصورة" أو "الصُورائية"؛ كانت في الدراسات الأدبية المقارنة، وذلك بدافع فهم الآخر، وعلاقتها ب "الأنا"؛ حيث إن الدراسات التي " تتخذ الصورة بأشكالها المتنوعة موضوعا

[1] – حقل من حقول الأدب، يهتم بالمقارنة بين أدبين، أو أكثر، ينتمي كل منهما إلى بلد غير بلد الذي ينتمي إليه أدب الآخر، بهدف الوقوف عند أوجه الإختلاف والتشابه بين الآداب، ومعرفة العوامل المسؤولة عن ذلك، كما يهدف إلى معرفة الصورة التي ارتسمت في ذهن أمة عن أمّة أخرى من خلال أدبها.

لها يطلق عليها الصّورلوجيا، أو كما تسمى في بعض الترجمات بـ (الصّورية) أو (علم الصورة) الذي يُعْنَى بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها"[1].

وتجدر الإشارة أن "الصُّورلوجيا" بهذا المصطلح، "قد نمت من اللفظ الفرنسي (Imagologie)" كمصطلح عربي، بواسطة الباحث المقارن المغربي، "سعيد علوش"2، وهو جهد شخصي صدر عنه بفضل مكوناته الثقافية الفرنسية، إسهاما في تنمية هذا العلم وازدهاره، وما تتطلبه معطيات الحضارة العلمية الحديثة، من مصطلحات علمية"[3].

إنّ "الصورلوجيا قد صُنِّفت بداية كدراسة من دراسات البحث في الأدب المقارن، لذلك كانت أحدث ميدان من ميادين هذا الأدب، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عاما بالدراسات الأدبية المقارنة في الساحة الأدبية العربية، ولكنه مع حداثة نشأته، غني بالبحوث التي تبشر بأنه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن، وأكثرها روادا في المستقبل"[4]، وذلك على مستوى البحوث والدراسات العربية التي تهتم بهذا النوع من الدراسات.

ويرجع ميلاد مبحث الصورلوجيا إلى المدرسة الفرنسية ونشأت في أحضان الأدب المقارن، إذ "ترجع بدايات هذا النوع من فروع الأدب المقارن إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما قامت الأديبة الفرنسية المعروفة "مدام دي ستايل"[5](G. de Saeil) بزيارة طويلة إلى ألمانيا سنة 1811م، وذلك في وقت تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني، وأثناء الإقامة فوجئت الأديبة بمدى سوء الفهم والجهل الذي يعاني منه الفرنسيون حول ألمانيا، رغم الجوار الجغرافي، فقد تبيَّن لها أن الفرنسيين يجهلون أبسط الأمور المتعلقة بالمجتمع والثقافة والأدب والطبيعة في

[1] – الحمداني، نوافل يونس (2012): الصورلوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى، الجزائر: مجلة ديالي، عدد 55، ص12.

[2] – هو أديب مغربي، حصل على الإجازة في الأدب العربي من جامعة محمد الخامس سنة 1970، ثم على دكتوراه السلك الثالث سنة 1976، وكذلك دكتوراه الدولة من جامعة السوربون سنة 1982، وقد عمل أستاذا للتعليم العالي، ورئيسا لقسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة محمد الخامس بالرباط، ورئيسا للجمعية المغربية للأدب المقارن، من مؤلفاته: "جمالية القبح"، "ما بعد الآداب الكبرى"

[3] – عبود، عبده (1991): الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، ط1، حمص: منشورات جامعة البعث، ص380.

[4]– هلال، محمد غنيمي (2003): الأدب المقارن، ط3، القاهرة: منشورات نهضة مصر، ص419.

[5]–ولدت في سنة 1766م في باريس، وتوفيت في سنة 1817م، وهي أديبة فرنسية ومهتمة بعلم السياسة، عايشت أحداث الثورة الفرنسية، تعرضت للنفي من طرف نابليون بونابرت، حيث كانت من المعارضين لسياساته، اشتهرت بأعمالها الروائية وأدب الرحلة.

ألمانيا، فرسموا في أذهانهم صورة لشعب فَظٍّ غير متحضر، يتكلم لغة غير جميلة، ليس له إنجازات أدبية أو ثقافية تستحق الذِّكْر؛ إنها باختصار صورة يرسمها شعب لشعب آخر، يَعُدُّهُ عدوا له"[1].

فكانت الرحلة التي قامت بها الفرنسية "دي ستايل" (Germaine de Saeil) بداية نحو الكتابة عن الآخر، بطريقة تتوخى تصحيح سوء الفهم، وتقويم التمثلات التي كانت لدى الفرنسيين عن الألمان، وهي تمثلات رسمت صورة خاطئة ومشوهة لهم، يتحكم فيها العداء بين الطرفين، لذلك كانت "مُحَصِّلَة الرحلة التي قامت بها "مدام دي ستايل" إلى ألمانيا، كتابا وضعت له عنوانا بسيطا هو "ألمانيا" سعت فيه إلى تصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم، لهذا، بإمكاننا أن نَعدّ هذا الكتاب بداية لما أصبح يعرف "بالدراسة الأدبية للآخر" (الصورلوجيا)"[2]، فكتابها الذي هو مُحَصّلةُ رحلتها واستقرارها بألمانيا، كان بداية نحو بروز مبحث جديد، ضمن مباحث وفروع البحث الذي أدرج في ميدان الأدب المقارن، وهو الصورولوجيا، لذلك كانت مرويات الرحلة قد هيأت لميلاد "الصورلوجيا"، إذ "كثيرا ما يكون مصدر تلك الصورة أسفار ورحلات قام بها الأديب إلى بلد أجنبي، أو إقامة الأديب في ذلك البلد"[3].

والواقع أن تصنيف دراسة صورة الآخر ضمن الأدب المقارن، لم يكن محط اتفاق بين الباحثين؛ وفي هذا الصدد، يورِدُ الباحث في الأدب المقارن " دانييل هنري باجو" Daniel Hénri Bajou أن كثير من الفرنسيين أنفسهم أبدوا معارضتهم لتصنيف الصورلوجيا في الأدب المقارن، حيث أبدى "رينيه ويلك" ضمن مقالة في الكتاب السنوي للأدب المقارن والأدب العام، معارضة شديدة للدراسات التي يعدها أقرب إلى التاريخ أو تأريخ الأفكار منها إلى الأدب، بعد عشر سنوات، نَدَّدَ " إيتامبل"، في كتابة (مقارنة ليست صوابا) بالأعمال التي تهم المؤرخ وعالم الإجتماع أو رجل الدولة"[4].

وبالتالي، فقد أثارت دراسة صورة الآخر، تحت باب ما عرف ب "الصُّورُلُوجْيا" أو"علم الصورة"، (Imagologie) عدة انتقادات ارتكزت على أسس، تنطلق من اعتبارات، ومحاولة رسم حدود بين المؤرخين والمقارنين، علماً بأن " دراسة الصورة كانت مشتركة بين المعارف قبل الأدب"[5]. على هذا الأساس، فلم تعد دراسة صورة الآخر الأجنبي، هي دراسة أدبية حصرية، وإنما هي دراسة تشترك

---

[1]- حمودي، ماجدة (2000): مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ط1، دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، ص110.

2- حمودي، مصدر سابق، ص110.

3 - عبده عبود، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، مصدر سابق، ص374.

4- دانييل، هنري باجو (د.ت) الأدب العام والمقارن، ط1، دمشق: ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، ص89.

5- باجو، مصدر سابق، ص90.

فيها عدة تخصصات ومعارف؛ فأصبحت "الدراسات التي تتخذ من الصورة موضوعا لها نسميها "صورلوجيا"[1].

وأصبحت الدراسة الصورلوجية تتجاذبها عدة حقول علمية، وظلت دراسة الصورة اهتماما معرفيا مشتركا، إذ "يتقاطع هذا النوع من الدراسات مع البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية، وعلماء الإنسانيات، وعلماء الاجتماع، ومؤرخو العقليات والحساسيات، الذين يطرحون مسائل حول الثقافات الأخرى، والغيرية والهوية والمنافسة، والتنافر الثقافي، والاستلاب الثقافي، والرأي العام أو الخيال الاجتماعي"[2]، وانفتحت الصورلوجيا على دراسات علمية من علم السلالات والتطور الإنساني أي الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع وعلم التاريخ"[3]، لتكون دراسة صورة الآخر، تأملا معرفيا مشتركا لا يمكن حصره في الأدب المقارن.

1- وظيفة واهتمامات الصورلوجيا

إن الصورلوجيا قامت بالأساس، على وظيفة تقويم كل اعوجاج وتشويه في الصورة التي رُسِمَتْ للآخر، وكذا وسيلة لاكتشاف ومعرفة كل ما يهم الذات. هي دراسة الآخر الأجنبي، من خلال ما جاء في كتابات وخطابات الذين كتبوا عن هذا الآخر؛ إذ إن "الميدان الذي تشتغل فيه الصُّورُلوجيا، وتتخذه موضوعا لها، هو الأجنبي كما يصوره "الأنا"، وقد تباينت وجهات النظر له، حسب أسس ومنطلقات مَنْ يُكَوِّنُ هذه الصورة، فالصورلوجيا هي التي تهتم بمعرفة الصور الذهنية التي يشكلها شخص عن نفسه وعن الآخرين"[4]، وقد "عُدَّت الصُّورلوجيا من قبل بعض الأصول الأدبية والذاتية المُحايثة للصورة بمثابة مبحث يستهدف أولا وقبل كل شيء تبديد ميثات الآراء الخاطئة عن الجماعات الإثنية والعرقية واللغوية أو القومية"[5]. كما هو الحال مثلا مع آراء الرحالة الغربيين حول ثقافة الشعوب التي زاروها وكتبوا عنها، فالصورلوجيا تسعى إلى وضع تلك الصورة في ميزان النقد والتحليل. وهو ما تتوخاه دراستنا عندما نقف عند صورة المرأة المغربية، كما جاءت في كتابات الرحالة الأوربيين.

1- عبود، مصدر سابق، ص371.

2- عبده عبود، مصدر سابق، ص90.

3 - ماجدة حمودي، مصدر سابق، 118 (بتصرف).

4 - هنري باجو، الأدب العام والمقارن، مصدر سابق، ص89.

5 - ذاكر، عبد النبي (2004): أفق الصورلوجيا، نحو تجديد المنهج، جدة: مجلة علامات في النقد، عدد51، مارس، ص386.

ثانيا: الصورلوجيا بين الخطاب الرحلي والبحث التاريخي : التقاطعات وأفق البحث في تاريخ الآخر

1- دراسة الآخر في الخطاب الرحلي من خلال توظيف الصورولوجيا

لقد سبق وأن جاء في محاورنا السابقة، إشارات تتعلق بارتباط الخطاب الرحلي بصورة الآخر، ومدى تعلق الدراسات الصورولوجية بمرويات الرحلة، بل اعتبرت هذه الأخيرة – في نظرنا– هي التي مهدت وهيأت لميلاد الصورولوجيا، ولذلك فإن دراسة الآخر الأجنبي، يجد في كتابات الرحالة، المجال الخصب لتطبيق المقاربة الصورلوجية، فإن النصوص الرحلية هي حاملة لصورة الآخر، بثقافته وكل ما يميزه، مما يجعله متفردا ومختلفا عن ذات وثقافة الرحالة، لذلك يبقى الخطاب الرحلي والصورلوجيا، ثنائية تحكمها علاقة وطيدة تتجلى في إبراز وكشف تلك الصورة التي رسمتها نصوص الرحالة عن الآخر في فترة من الفترات، الأمر الذي يعطيها بعدا تاريخيا.

فالصورولوجيا، تتولى إعادة قراءة تلك الصورة التي شكلتها "الأنا" الراحلة عن "الآخر" المُرْتَحَلِ إليه، هذه القراءة التي قوامها الخروج بمعطيات تاريخية حول الآخر، وكذا لتصحيح وتبديد الرؤى الخاطئة، وتقويم الصورة، حتى تصبح عاكسة لتاريخ وواقع الآخر كما هو، بعيدا عن كل ذاتية أو إيديولوجية، وهذا من خلال "البحث المعمق عما يبنيها ويشكّلها وما يجعلها تبدو صادقة ومطابقة للأصل"[1].

هذه الصورة، يمكن أن نشاهد فيها جزءا من ماضي الشعوب وأحواله، لذلك، فإن نصوص الرحلة هي "المعين الذي يمتاح منه أي شعب معلوماته عن شعب آخر"[2] في تلك الفترات التي لم تكن هناك من المصادر والقنوات التي من خلالها يتم معرفة الآخر.

لذلك كان لمرويات الرّحّالة دورا إعلاميا ساهم في تشكيل الوعي الجمعي لدى الآخر، وأسهمت في بناء تمثلات الأجنبي عن الآخر، وكانت هي الشاحن لذهن الأفراد والجماعات، وفق صور كونتها حول الشعوب الأخرى، واستهلاكها من طرف الرأي العام الذي يستعصي عليه الوصول إلى عوالم أخرى بشكل مباشر، في فترات كانت تنعدم فيها القنوات الإعلامية المرئية والمسموعة.

من هنا، تتضح تلك الروابط والتقاطعات التي بين العناصر الثلاثة، أي: "الصُّورولوجيا"، و"الكتابة الرحلية"، و"المعرفة التاريخية"، فحضور تاريخ الآخر في النص الرحلي يبقى أمرا مفروغا منه، إذ لا يمكن، أن نتصور نصا رحليا مهما كان، بدون معطيات تهم تاريخ الآخر، بثقافته ونُظمه،

1 – هنري، باجو (1997): نحو منهجية لدراسة صورة الآخر، جدة: ترجمة محمد سعيد الزهراني، مجلة نوافذ، عدد 2، دجنبر، ص: 76.

2 – الطاهر، أحمد مكي(1987): الأدب المقارن، أصوله، وتطوره، ومناهجه، ط1، القاهرة: دار المعارف ص316.

تاريخ قد تمتزج فيه الواقعية بالذاتية والإيديولوجية، وهو ما يستدعي وضع تلك المعطيات الرحلية حول الآخر في ميزان الدرس الصّورلوجي لقياس درجات الموضوعية والانحراف في ما كُتب عن الآخر، وفي كلتا الوضعيتين فإن المستفيد الأكبر هو المعرفة التاريخية، إما من خلال الاستفادة من معطيات تاريخية وردت بتلك المرويات حول تاريخ الآخر، وفي الحالة الثانية، هي تقييم وتقويم تلك الصورة التي أنتجتها النصوص الرحلية، وهو ما يسمح بترميم وتصحيح المعرفة التاريخية التي ترسخت في تمثلات الآخر حول تاريخ وثقافة المجتمعات التي كتب عنها الرّحالة.

2- أهمية الدرس الصُّورلوجي في تحقيق مقاصد وغايات البحث التاريخي

إذا كانت النصوص الرحلية هي محرك من محركات البحث التاريخي، ووسيلة من وسائل إنتاج معرفة تاريخية حول الآخر، تكون فيها الصُّورولوجيا إحدى آليات دراسة تاريخ هذا الآخر، فهذا يدفعنا إلى طرح السؤال التالي:

كيف يمكن للصورولوجيا أن تساعدنا في كتابة تاريخ الآخر"، أو بصيغة أخرى؛ ما الجدوى من الدرس الصورولوجي في البحث التاريخي؟

إنَّ التاريخ كما هو معلوم وراسخ، ليس فقط سرد للماضي، فهو رجوع إلى الماضي، من أجل فهم الحاضر، واستشراف المستقبل، ففي إطار هذه المعادلة الثلاثية، يمكن أن نُدرج أهمية ووظيفة المقاربة الصورولوجية في البحث التاريخي. فكيف يمكن أن تتحقق هذه الغاية إذاً؟

1.1. على مستوى دراسة الماضي

إن دراسة الماضي البشري، بجميع أبعاده وعناصره، هي وظيفة المؤرخ بالأساس، ذلك أن علم التاريخ وُضع لهذه المهمة، عبر التدوين والتوثيق، وكذا الدرس والتحليل، والمؤرخ والباحث في تاريخ الشعوب والأمم، يكون هو أساس أَجْرَأَة هذه الوظيفة، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بِتَقَصِّي الأسباب والعلل المُفَسِّرة للوقائع والظواهر، وبالتالي، الخروج من دائرة السرد الكرنولوجي، ولعل أفضل ما يمكن أن نستشهد به في هذا الإطار، قول "ابن خلدون" في مقدمته، حين تحدث عن فَضْل علم التاريخ، قائلا: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزَلّات والمغالط، لأن الأخبار، إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران

والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق"[1].

فقول "**ابن خلدون**"، يحمل الجواب الشافي والكافي، بخصوص ما يتعلق بماهية التاريخ، وأهدافه ومنهجه، إذ دراسة الماضي، ليست فقط الحكي والسرد، بل تحقيق ودراسة، وابتعاد عن كل زلَّة وتيهٍ، أو كل مغالطة وتحريف، وانفتاح على علوم ومناج مساعدة في بناء المعرفة التاريخية.

وفي هذا السياق، يمكن أن نستحضر أهمية الصّورلوجيا، باعتبارها هي دراسة تقوم على أساس دراسة صورة الآخر فيما أنتجه الأنا، كما هو الحال بالنسبة لما كتبه الرحالة عن الآخر، فهي دراسة لا تكتفي باجترار ما جاء في تلك النصوص الرحلية فقط، وإنما هي سَبْرُ أغوارها وتحريك ما جاء فيها، والوقوف عند الأحكام والمعطيات التي تحملها حول الآخر الذي كتب عنه الرحالة، والتصدي لها بالتحليل والتمحيص والمناقشة والمقارنة، ولعل هذا العمل هو جزء هام من مهنة المؤرخ، في تمحيصه للأخبار والتحقق منها، عبر التحليل والمقارنة، والخروج بخلاصات واستنتاجات، تُميط اللثام عن كل مبهم، وتصحيح كل خطأ، وتفنذ كل ادعاء، كما تدعم كل فائدة، من خلال بحث علمي رصين، قوامه المنهج العلمي والموضوعية، الذي لا يمكن أن يتم إلا عبر استدعاء فروع ومجالات علمية أخرى، وكل ما يرى فيه الباحث في التاريخ، أن يشكل سندا ومُعِينًا في استقصاء الحقائق، وبناء المعطيات التاريخية وإعطائها قراءة جديدة.

ومن جانب آخر، فإن الصُّورولوجيا، عند دراستها لصورة الآخر عبر متون الرحلة فهي دراسة همُّها الأساسي أيضا هو التصدي لكل تشويه أو تحريف لتاريخ الآخر، هذا التحريف الذي قد تتحكم فيه أهواء إيديولوجية أو نعرات مذهبية، وكل ما يمكن أن يُشكل دافعا نحو الكتابة عن الآخر وتصويره وفق صورة معينة.

وعموما، فالصورولوجيا هي دراسة الماضي الذي شكله وكتبه الإنسان عن الآخر، فهي إعادة إحياء تلك الكتابات ونفض الغبار عنها، قصد إعادة كتابة الماضي، وكذلك إعادة فهم الآخر فهما صحيحا، يعكس الآخر كما هو، وليس كما تَمَّ تشكيله. هذه الدراسة التي تنبني أساسا على الموضوعية والعلمية بعيدا عن كل تحيز أو تعاطف أو تعصب، وبهذا تكون الصورولوجيا قد أضيفت إلى مفاتيح البحث التاريخي، كمبحث قد يسعفنا في بناء صورة حول الآخر، تعكس الماضي كما هو بِغَثِّه وسمينه، بإيجابياته وسلبياته، وإعادة كتابة تاريخ الآخر، وترميم الذاكرة التاريخية، وفي هذا ما يمكن أن يُحَقِّقُ لنا غايتين في البحث التاريخي، يمكن توضيحهما كما يلي:

[1]– ابن خلدون، عبد الرحمان(2005): المقدمة، ط1، الدار البيضاء: تحقيق عبد السلام الشدادي، ج1، منشورات خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، ص13.

- **الغاية الأولى:** تتجلى في إنتاج معرفة تاريخية جديدة، حول "الأنا الجماعية" الذي كتب عنه الرّحالة، خاصة عندما يتعلق بالتاريخ المُهمَّش، وما يرتبط بتاريخ السلوكات والمعتقدات، وكذلك كل ما يرتبط بالحياة اليومية للآخر، وتزداد الأهمية أكثر، وتُعَزَّزُ الفائدة أكثر، عندما يتعلق ببعض الفئات الاجتماعية التي طالها النسيان، والتهميش في كتابات المؤرخين، من فلاحين وحرفيين وفقراء ونساء وغيرهم من المُهمشين والمستضعفين.
- **الغاية الثانية:** فيمكن للمقاربة الصورولوجية خاصة فيما كتبه الرّحالة عن الآخر؛ أن تساعدنا في إعادة كتابة وقراءة التاريخ، وفق آلية التحليل والوقوف عند المعطيات، ومساءلتها عبر النقد والتصحيح، وإزالة كل الشوائب عنها، حتى تصبح في منأى عن كل تحريف يطالها، أو مغالطة قد تعَوَّد عليها المتلقي لتصبح لديه راسخة على أنها الحقيقة والصورة التي تعكس تاريخ الآخر الذي كتب عنه الرحَّالة، وبالتالي يكون الدرس الصورولوجي، يقوم بوظيفة تقويمية، تُقَوِّمُ هذا الاعوجاج، وتتصدى له، كما تصحح سوء الفهم لدى الآخر، ليتمَّ وضع صورة الآخر في ميزان الحقيقة التاريخية، بعيدا عن كل تعصُّب وتحيز، أو غاية خارج الغاية العلمية التي يتوخّاه البحث التاريخي.

1.2. على مستوى فهم الحاضر، واستشراف المستقبل

إن دراسة الماضي، يجب أن لا تقتصر على استحضار الذاكرة فقط، وتحنيطها في بعدها الزمني فقط، فهذا جزء من وظيفة البحث التاريخي في بعده السردي والمذكراتي، في حين أنّ المؤرخ الحقيقي هو الذي يرجع إلى الماضي؛ رجوعا قوامه التأمل والتدبر، وليس فقط من باب الحفظ والتذكر، فالتاريخ هو مساءلة الماضي بإشكاليات الحاضر ورهانات المستقبل، وهذا ما يجعل التاريخ "إنتاجا لحركة بين الماضي والحاضر، وبين مطاردة المعطيات وتفسيرها، وبين خلق الموضوعات وقراءتها"[1].

إذا كيف يمكن أن تسهم الدراسة الصورولوجية في فهم الحاضر واستشراف المستقبل اعتمادا على شواهد وقضايا الماضي؟

للإجابة على هذا التساؤل، يمكن أن نوضحه انطلاقا من مستويين:

- المستوى الأول: أهمية الصورولوجيا في إطار علاقة الذات بنفسها.
- المستوى الثاني: أهمية الصورلوجيا في إطار علاقة الذات بالآخر الذي كَتَبَ عنها.

[1]– الريماوي، مالك (2008): التاريخ والأدب، كتابة من القاع الاجتماعي، مجلة رؤى، فلسطين: عدد 26، ص98.

المستوى الأول: أهمية الصورولوجيا في إطار البحث في علاقة الذات بنفسها

إن وظيفة التاريخ على حد قول "عبد الله العروي" هي "الوعي بالتغير"، بمعنى هو دراسة الماضي، دراسة تنظر إليه بمنظار الماضي الحي، الذي له تأثيره في الحاضر والمستقبل، لذلك فإن دراسة صورة الآخر في مؤلفات الرحلة، ستسلط الضوء على جوانب مهمة ومتعددة من تاريخ الإنسان والمجتمع، دراسة ستفتح المجال أمام معرفة الذات قبل كل شيء، فصورتنا كما جسدتها كتابات الرَّحَّالة، هي ليست صورة مغلوطة ومُشَوَّهة بشكل مطلقٍ، فمن يعتقد هذا فهو وَاهِمٌ، وكثير من أولئك الذين يتبنون هذا الطَّرح، إنما هو بدافع كما يقال "ردُّ الصّاع بصاعين"، وطرحهم يرتكز على نزعة ذاتية، مُحَمَّلةٍ بنفحةٍ عدائية وموَّجهة بدوافع ذاتية لا غير، والردِّ على ما كتبه الآخر بدافع المواجهة والنِّدية، فتكون كتابتهم حول ما كتبه الآخر، ردًّا مُتعَصِّباً، وفي بعض الأحيان تتحكم فيه رواسب عُقدةُ العداء والصِّراع. وفي الجهة المقابلة نحن لا نسَلّم بكل ما ورد في هذه الكتابات، فقد تحمل من الذاتي والإيديولوجي، ما يزيغ عن الموضوعي والإبستمولوجي، مما يحتّمُ على الباحث أن يكشفها، ويضعها موضع نقد ومساءلة. وهنا يمكن أن تتدخل الصورولوجيا لتعين الباحث في هذه المهمة.

إذن، فإن دراسة الصورة انطلاقا من كتابات الرحالة الأوربيين، هي دراسة ستدفعنا بالدرجة الأولى إلى المعرفة التي ستقودنا إلى فهم حاضرنا، وكشف أسباب العلل والأسقام الذي تمتد بجذورها إلى الماضي، الذي لا يزال في كثير من صوره مستمرا، ويحكم قبضته على حاضرنا ويُضَيِّقُ الخناق عليه. لذلك فإن الدراسة الصورولوجية أهميتها ووظيفتها في إطار البحث التاريخي تنبع من هذه الإشكالية، أي؛ تسليط الضوء على كثير من القضايا التاريخية التي تهم واقعنا ومجتمعنا، واقع إذا فُهِمَ على ضوء فهم الماضي ورواسِبِهِ الحالية، سيسهم لا شك، في علاج أعطاب الحاضر، وتتضح معه الرؤية نحو المستقبل، أو على الأقل يتمُّ تشخيص الداء، تشخيصا صحيحا، من خلال مساءلة الحاضر بالماضي، في إطار النقد الذاتي، عبر الوقوف أمام مرآة الصورة التي اختزنتها كتابات الرّحالة الأوربيين.

المستوى الثاني: أهمية الصورلوجيا في إطار البحث في علاقة الذات بالآخر

إن الصورة التي جاءت بها كتابات الرَّحالة، هي صورة تربط بين "الأنا" الناظر و"الآخر" المنظور إليه، وبالتالي هي ثنائية علائقية، قد بنيت على أساس سياقات خاصة وعامة معينة، قد تحكمت في تشكيل هذه الصورة وتفسيرها وفق آلية التمثيل والانتقاء، وبالتالي، "تباينت الأحكام على الآخر انطلاقا من الصور التي رسمت له"[1]، وأصبحت تلك الأحكام هي المنظار الذي ينظر بها إلى الآخر جيلا بعد جيل، والتي مازالت تفعل فعلها إلى يومنا هذا، وسيظلُّ مفعولها مستمرا، الأمر الذي

[1] – حميش، بنسالم (2003): في معرفة الآخر، ط1، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ص8.

يُحَتِّمُ تصحيح سوء الفهم لدى الآخر، حول ما ترسَّخ لديه حول تاريخ الآخر، وأصبح يتحكم في نوعية النظرة لهذا الآخر الأجنبي في زمننا الراهن، لاسيما عندما يتعلق الأمر بالتاريخ الاجتماعي والثقافي، وما يرتبط بتاريخ المهمش من الفئات التي استهوت عيون الرحالة الأجانب، وكتبوا عنها باهتمام وشغف كبير، كما هو الحال مع فئة النساء موضوع دراستنا.

وعليه، فإن الصورولوجيا، تعيد فتح باب العلاقة مع الآخر، وفق آليات ووسائل جديدة، تتجلى في صعْقِ تلك الكتابات التي كتبها الآخر، ومن بينها نصوص الرحلة، هو صعْقٌ يعيد نبض الحياة في تلك الكتابات، وتُحَرِّكَ معطياتها من جديد، عبر التحليل والمقارنة قصد تحرير ذلك الماضي من أحكام ومصالح أولئك الذين كتبوه في فترة من الفترات، والغاية في هذا هو تكسير نمطية الصورة، والاتجاه نحو "إزالة سوء التفاهم، والتأسيس لعلاقات مُعافاة من الأوهام، والتشويه السلبي والإيجابي، تعطي الآخر حقه كما تعطي الذات"[1] بدون تضخيم أو تقزيم طرف على حساب الآخر، وبالتالي، بناءُ حاضرٍ يتأسس على علاقات تواصلية، ينظر فيها كل طرف إلى الآخر، من منظار التعدد والتنوع الثقافي، والخصوصية التاريخية لكل واحد منهما، دون تحيّز أو تعصّب، وقراءة التاريخ قراءة موضوعية ومُنصِفة، فالصورة الذهنية "تعيش أطول من كل أشكال الحياة التي حددت وستواصل تحديد مسار حياتها مستقبلا"[2]، ومن آليات تصحيح وتقويم هذه الصورة ينبغي أن نضعها في مختبر الصورلوجيا، على اعتبار أن مسؤولية الدرس الصورلوجي تصحيح تلك التمثلات والصور الخاطئة أو المشوهة عند شعب حول شعب آخر، من خلال الاعتماد على "مفاهيم الدرس السيكولوجي والسوسيولوجي والإثنولوجي وهي بذلك عبارة عن تداخل دروس العلوم الاجتماعية الإنسانية بالأدبية"[3].

فالصورلوجيا، يمكنها أن تعيد الذات إلى وضعها المناسب في مخيال الآخر الغربي، وتصحيح سوء الفهم، كما أنها تضع الثقافة المغربية وصورتها، وفق مبدأ الخصوصية الثقافية، والتفرد الحضاري، تنتفي معه كل تلك التمثلات الخاطئة والمصنوعة حول المغاربة، في أفق رسم علاقات ثنائية مع الآخر تقوم على أساس مثاقفة متوازنة، أملا في الإسهام في بناء رؤية متوازنة للذات والآخر، تضع كل طرف في مقامه وضمن خصوصياته، في أفق رسم علاقات ثنائية مع الآخر، تقوم على أساس مُثاقفةٍ عادلة ومتحررة من ثنائيات متقابلة، من قبيل (التخلف # التقدم) (المدنية# الهمجية) (المركزي # الهامشي) وغيرها من التقابلات، التي قد كرستها الأدبيات الغربية، وفي مقدمتها مرويات الرحلة، ومازال مفعولها حاضر في إطار العلاقات التي تربط "الأنا" ب "الآخر" وعلى وجه الخصوص عندما نتحدث عن (الشرق) مقابل (الغرب)، فيمكن للدراسة الصورولوجية "أن تساعد

[1] – حمودي، مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، مصدر سابق، ص108.

[2] – جيرالد، هوتر (2014): سلطة الصورة الذهنية، ط1، منشورات مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ترجمة علا عادل، ص47.

[3] – علوش، سعيد(1985): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، بيروت: دار الكتب اللبناني، ص137.

بلدين على إجراء نوع من التحليل النفسي الوطني، عن طريق معرفة أفضل لمصدر أحكامهم المسبقة المتبادلة، وكل طرف يعرف نفسه بصورة أفضل ويكون أكثر تسامحا مع الآخر"[1]، لتكون العلاقات هي علاقات قِوَامُها الحوار، والتواصل، وكذا التفاهم، والبحث عن كل مشترك ثقافي وحضاري.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن خلدون، عبد الرحمان(2005): المقدمة: ط1، تحقيق عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء: ج1، منشورات خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب.
- الحمداني، نوافل يونس (2012): الصورلوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى، الجزائر: مجلة ديالي، عدد 55.
- عبود، عبده (1991): الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، ط1، حمص: منشورات جامعة البعث.
- هلال، محمد غنيمي (2003): الأدب المقارن، ط3، القاهرة: منشورات نهضة.
- حمودي، ماجدة (2000): مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ط1، دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.
- دانييل، هنري باجو(د.ت): الأدب العام والمقارن، ط1، ترجمة غسان السيد، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- ذاكر، عبد النبي (2004): أفق الصورلوجيا، نحو تجديد المنهج: السعودية، جدة: مجلة علامات في النقد، عدد51.
- هنري، باجو(1997): نحو منهجية لدراسة صورة الآخر: ترجمة محمد سعيد الزهراني، جدة: مجلة نوافذ، عدد 2.
- الطاهر، أحمد مكي(1987): الأدب المقارن، أصوله، وتطوره، ومناهجه، ط1، القاهرة: درا المعارف.
- الريماوي، مالك (2008): التاريخ والأدب، كتابة من القاع الاجتماعي، مجلة رؤى، فلسطين: عدد26.
- حميش، بنسالم (2003): في معرفة الآخر، ط1، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

[1] – بيير برونيل، كلود بيشوا، أندريه ميشيل روسو (1996): ما الأدب المقارن؟، ترجمة: غسان السيد، ط6، دمشق: دار علاء الدين، ص74.

- جيرالد، هوتر (2014): سلطة الصورة الذهنية: ط1، ترجمة علا عادل، منشورات مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية.
- علوش، سعيد (1985): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، بيروت: دار الكتب اللبناني.
- بيير برونيل، كلود بيشوا، أمدريه ميشيل روسو (1996): ما الأدب المقارن؟، دمشق، ط6، ترجمة: غسان السيد، دار علاء الدين.